الفصل الرابع عشر

سارتر والالتزام تجاه قضايا المقاومة

جمال مفرج(*)

كان «هيدغر» يقول لطلابه إن هدف الإنسان الأول ليس أن يحاول فهم الأحداث والتحكم فيها، إنَّما هدفه أن يعيد إلزام نفسه بالقيم التي تمكنه من الفعل من داخل تلك الأحداث، وبهذا الفعل يستطيع أن يحقق «أصالته» أو «حقيقته»(١).

هذا التصور للالتزام هز سارتر إلى النخاع. وبالفعل، وبمجرد عودته إلى باريس من جامعة برلين، أعلن سارتر بحماسة شديدة أن هيدغر، مع هوسرل، قد القيا بالإنسان مرة أخرى في خضم العالم، إذ إنهما أعطيا القياس الصحيح لآلام ومعاناة الإنسان، وأيضاً لعصيانه(٢).

لقد أعادت كلمات هيدغر ـ المدافع عن ألمانيا النازية ـ إلى سارتر ـ المناهض لألمانيا النازية ـ بعض الطاقات بعدما ساءت سمعة المثقفين وخصوصاً مثقفي اليمين بسبب تعاونهم مع الألمان. وبالفعل، فبعد أن كان سارتر يتصور أن الآخرين هم «الجحيم»، اكتشف خلال الحرب وبعدها أن الآخرين هم نوع من الإنقاذ والخلاص. وحينذاك أعلن دوراً جديداً للكاتب والمثقف لفترة ما بعد الحرب، وبدأ يتلمس طريقاً غير طريق «الفن للفن» هي طريق التكامل مع البشر الآخرين، لأن الكاتب لا يمكن

(*) أستاذ محاضر في قسم الفلسفة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة منتوري، قسنطينة ـ الجزائر.

(١) آرثر هيرمان، **فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي**، ترجمة طلعت الشايب (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠)، ص ٤٠٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

أن يهرب من زمنه، بل يجب عليه أن يتقبله تماماً. هذا، وقد أوضح شريك سارتر الشاب موريس ميرلوبونتي كيف أن الالتزام بالشيوعية يمكن أن يفي بالشروط التي كان هيدغر قد وضعها للالتزام السياسي، كشكل من أشكال الحرية الروحية.

إن القصد من هذه المقدمة أن نردّ التهمة الخاطئة التي يحلو لبعض المفكرين، ولا سيما الفرنسيين، أن يلصقوها بسارتر حين يشككون في موقفه من الاحتلال النازي. والحقيقة أن سارتر تعرض للسجن، ثُمّ أطلق سراحه. كما بادر سنة ١٩٤١ بتأسيس جماعة «الاشتراكية والحرية»، وحاول الاتصال بجماعات المقاومة. وبعد ذلك انتقل في كُلّ أنحاء فرنسا لتنظيم جماعة مقاومة، فذهب إلى «مالرو»، واتصل بـ «جيد» ليرى إن كان بالإمكان فعل شيء تجاه الاحتلال النازي. غير أن محاولته تلك باءت بالفشل. ولكن، وبالرغم من فشله، فإن سارتر ظلّ مفكراً شجاعاً، وبرهن على ذلك خلال الاحتلال وبعد التحرير من خلال المواقف والقضايا العديدة التي تبناها.

والحقيقة أن الذين انتقدوا مواقف سارتر من الاحتلال النازي، إنّما كانوا ينتقدون التزامه تجاه قضايا الاستعمار، ودفاعه عن قضايا الحرية في العالم، ولا سيما استقلال الجزائر، وعن حقوق المضطهدين، وفضح أساليب الاستعمار بشكليه القديم والجديد: «إننا ـ في ما يقول سهيل إدريس ـ لا نستطيع أن ننسى مقالاته وخطبه وبياناته في الدفاع عن حقّ الشعب الجزائري بالاستقلال، ولا ننسى أنّه سار في عدة تظاهرات تأييداً لهذا الحقّ واستنكاراً لسياسة الإرهاب الفاشية التي كان يتبعها الفرنسيون في الجزائر وفي فرنسا. ونحن نذكر أبداً تحريضه للجنود الفرنسيين على التمرد والعصيان وعدم الذهاب إلى الجزائر، حتّى لقد اتهم بخيانة فرنسا. ونحن نذكر موقفه المشرف الصادق من حوادث المجر، يوم استنكر تدخل القوات السوفياتية، هو الذي كان وما يزال من أكبر المتعاطفين مع الفكر الماركسي والشيوعي، وكذلك موقفه من التمييز العنصري في أمريكا، وتأييده للثورة الكوبية ضدّ الاستعمار الاقتصادي الأمريكي»[٣].

وهكذا فقد اضطلع سارتر، علانية، بسلسلة من الالتزامات تجاه قضايا التحرر، ولذلك ارتبط مفهوم الالتزام بفلسفته على الرغم من أنّه ليس أول من استعمل هذا المصطلح: «فإن فِعل (التزم) ومشتقاته (التزام، نلتزم، . . إلخ)، أخذ يظهر بكيفية منتظمة أكثر فأكثر منذُ ما بين الحربين العالميتين في خطاب النقاد والمثقفين، وبدقة أكثر، يبدو أن تحديد الالتزام الذي حدده سارتر أخذ يتشيد،

---

(٣) سهيل إدريس، «أبطال سارتر ليسوا كائنات تجريدية،» في: **تحولات مفهوم الإلتزام في الأدب العربي الحديث**، تخطيط وإشراف محمد برادة (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٣)، ص ٥٦.

تدريجياً، ضمن خطوات الوجودية المسيحية. وهكذا نجد أن الفيلسوف الوجودي المسيحي غابرييل مارسيل قد حدد الالتزام كوفاء للنفس؛ أي الفعل الطوعي والفعلي الذي يحدد به الشخص ذاته واختياره وفق مسعى ينطوي على قسط من الخطر والمجهول»[٤]. ومن هنا فإن تحديد الالتزام الذي اتخذه سارتر يلتقي مع الالتزام الذي أعلن عنه الفلاسفة الوجوديون، والذي يؤكّد أن الالتزام هو: «النقطة التي يلتقي عندها ويتواشج الفردي والجماعي، وحيث يترجم الشخص بالأفعال للآخرين الاختيار الذي أقدم عليه. ومن هنا فإن الالتزام يعود إلى قرار أخلاقي يريد الفرد، عن طريقة، أن يلائم بين فعله العملي وبين قناعاته الحميمية، مع ما في ذلك من مخاطر»[٥].

إن إحدى المسلمات الجوهرية للالتزام السارتري، والتي يدين بها للفلاسفة الوجوديين المسيحيين، هي التأكيد على أن الهدف الجمالي في فعل الكتابة لا يمكن أن يكفي لوحده ولا بُدَّ أن يقترن بـ (مشروع أخلاقي) يدعمه ويبرره. وبعبارة أخرى: «فإن الكاتب الملتزم لا يعتقد أن العمل الأدبي بمثابة (غائية من دون غاية) له مبدأه الخاص وغايته الخاصة.. ومن ثُمّ فإن الكاتب الملتزم يفهم الأدب على أنّه (مشروع) يعلن عن نفسه ويتحدد من خلال الغايات التي يتابعها في العالم. وبتعبير ثانٍ، فإن الكاتب الملتزم هو من يطلب من الأدب أن (يعطيه دوافعه)، ويساند كون تلك الدوافع لا يمكن أن توجد في جوهرٍ للأدب محدد سابقاً، بل توجد في الوظيفة التي ينوي الأدب الاضطلاع بها داخل المجتمع أو في العالم»[٦].

إن ما يطبع الالتزام، والحالة هذه، هو رفض السلبية. وبالفعل، لا يمكن بالنسبة إلى سارتر أن يكون هناك من مهرب ممكن للكاتب حتّى بوساطة الصمت، أو أن يكون هناك أدب طليق، أو أن يتملص الكاتب من العالم ومحدداته، عن طريق اتّخاذ موقف انسحاب كما يفعل الأدب الحداثي، الذي لم يكفّ، من فلوبير إلى كافكا، ومروراً بمالارميه، عن الدعوة إلى انسحاب مثالي للكاتب بعيداً عن العالم وبعيداً عن الالتزام. إن الأدب الملتزم بوصفه أدب (المشاركة) يتعارض مع أدب (الاقتناع) أو (الانطواء)، لأنه يصدر عن وعي الكاتب بتاريخيته: «ولكي تتطابق الكتابة منذُ ذاك بمشروع تغيير العالم، ولكي يكون الأدب مشروعاً حقيقياً لتغيير الواقع، يتوجب على الكاتب أن يقبل الكتابة من أجل الحاضر.. وإذاً فإن الكاتب

(٤) بينوا دونيس، «معنى الالتزام،» في: المصدر نفسه، ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

(٥) المصدر نفسه، ص ٣٠٠.

(٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

الملتزم يرفض أن يكتب من أجل الأجيال القادمة. . ويختار مصمّماً الإجابة عن مقتضيات الزمن الحاضر. . وبذلك فإن صورة العمل الأدبي تغيرت ما دامت الكتابة لم تعدّ موجهة للأجيال القادمة، وإنّما للوقت الحاضر، إذ لا وقت لديها لتأخذ طريقها المعتاد. إن عليها أن تبلغ هدفها هنا والآن»[٧].

هذا، وإن أبلغ مثال عن الالتزام السارتري هو موقف سارتر من المقاومة الجزائرية. وبالفعل، فقد تابع سارتر المقاومة الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي، وجو الثورة التي قامت في أوساط الشعب الجزائري، كما تابع جو التعذيب الذي كشف عن أفظع ألوان الوحشية من خلال اعترافات الجنود الفرنسيين، فلم يستطع أن يخرس لسانه ويخنق ضميره فكتب الحقيقة، وأثارت مقالاته انقلاباً في مختلف الأوساط الفرنسية: «هذا ما أود ـ في ما يقول سارتر ـ أن أطلعكم عليه في ما يتعلق بالجزائر، التي هي للأسف أوضح مثال وأبلغه عن النظام الاستعماري. أود أن أريكم صرامة نظام الاستعمار، ولزومه الداخلي، وكيف لا بُدَّ له من أن يفضي بنا إلى ما نحن عليه، وكيف أن أطهر النيات، حين تولد داخل هذه الدائرة الجهنمية، تفسد على الفور»[٨].

يحاول سارتر في كتابه **عارنا . . في الجزائر**، أن يتبين المضمون العام للمقاومة الجزائرية. وأول ما يتبين له أن تلك المقاومة ليست اقتصادية، ولا تقترن بما يسمى «بالوضع الذي لا يطاق»، كما يدّعي الاستعمار الذي يقرن الثورة بحالة البؤس، كما لو أن الشعب الجزائري بقي لفترة طويلة متمسكاً بالصمت ومنسحباً من المسرح، ثُمّ دعي إلى جبهة القتال عن طريق الأزمة والجوع، بحيث تبدو الثورة الجزائرية بهذا الشكل: أزمة، جوع، حرب، ثورة.

إن هذه القرينة القائمة بين الثورة والبؤس لا نجدها لدى الإدارة الفرنسية فقط، بل نجدها لدى بعض الكتاب الذين يرون في العملية الثورية شكلاً من أشكال الأوتوماتيكية التي تقود بالحتم من البؤس إلى الثورة كـ بوخارين (Bukharin)، والمفكر الفرنسي ميشليه (Michelet) الذي سبق بوخارين في تأكيده على القرينة القائمة ما بين الثورة والبؤس، فقد شاء ميشليه أن يجعل من الثورة «ثورة البؤس الشعبي». ثُمّ ثبت هذا الرأي بعد ميشليه كُلّ من جان جوريس وماتييز، في مجرى متابعتهما لتاريخ الثورة الفرنسية. كما أدخلت دراسات المؤرخ الفرنسي الشهير (أرنست لابروس)

---

(٧) المصدر نفسه، ص ٣٠٧.

(٨) جان بول سارتر، **عارنا.. في الجزائر**، ترجمة عايدة إدريس وسهيل إدريس، ط ٢ (بيروت: دار الآداب، ١٩٥٨)، ص ٧.

التأكيد على تفسير الثورة بدلالة البؤس، وحولت هذا التأكيد إلى مبدأ من مبادئ التاريخ[٩].

إن إقران حركة المقاومة الجزائرية بحالة البؤس لا تبدو مقبولة لسارتر على المستوى العيني، لأنها «خداع استعمار»، والخداع في ذلك يقوم على ما يلي: «إن الاستعماريين يطوفون بك الجزائر ويطلعونك بسهولة على بؤس الشعب، وهو بؤس مدقع، ويروون لك ألوان الإذلال التي يكبدها المستعمرون الأشرار للمسلمين، حتّى إذا بلغ بك الغيظ ذروته، أضافوا قائلين: «من أجل هذا حمل أفضل الجزائريين السلاح: فإنهم باتوا لا يطيقون هذا الوضع». فإذا انطلت علينا الخديعة، خرجنا من ذلك مقتنعين: بأن المسألة الجزائرية هي أولاً اقتصادية»[١٠]. إذاً فإن الخطة الاستعمارية، بحسب سارتر خطة مفضوحة: فالغرض من إقران الثورة بالبؤس هو أن يظل «المتروبول» محافظاً على سيادته في الجزائر من خلال اقتراحه «إصلاحات» تحمي طغيانه وتطيل في عمره؛ أي إصلاحات لصالح المستعمِر.

لقد كان سارتر يشعر أن الخداع الإصلاحي هدفه هو أن يصرف المفكرين عن رسالتهم التي تتمثل في محاربة العنصرية وفضح الاستغلال. وهو يقدم لنا لوحة عن البؤس المنظم الذي خلقه المغتصبون الأوروبيون، فيقول: «إن حالة الجزائر الراهنة تشبه أسوأ ألوان البؤس في الشرق الأقصى، ومع ذلك فيستحيل البدء بالتغيرات الاقتصادية لأن بؤس الجزائريين ويأسهم هما النتيجة المباشرة الضرورية للاستعمار، ولأنه لا يمكن إزالتها إطلاقاً ما دام الاستعمار قائماً. وهذا ما يعلمه جميع الجزائريين الواعين، وجميعهم يقرّون قول ذلك المسلم «خطوة إلى الإمام وخطوتان إلى الخلف: ذلك هو الإصلاح الاستعماري»[١١].

إن سارتر لم يتوخَ إذاً أن يجعل من «الجوع» قرينة بالنسبة إلى الثورة. بل هو يقرن الثورة بالشخصية الوطنية الجزائرية التي اكتشفت نفسها، في نظره، كرد فعل للتجزئة وللنضال اليومي. وهذه القومية هي، في نظره، المخرج الوحيد الذي يملكه الجزائريون لوضع حدّ لاستغلالهم. وبمعنى آخر، فإن الاستعمار يهيئ، في نظر سارتر، بتصلبه نهايته وهلاكه. ولذلك فإن مهمة المثقفين هي مساعدة الاستعمار على الموت لا في الجزائر وحدها، بل حيثما وجد: «والشيء الوحيد الذي نستطيع أن نحاوله ـ كما يقول سارتر ـ وينبغي أن نحاوله ـ ولكن المهم أن نحاوله اليوم ـ هو أن

(٩) عبد الرضا الطعان، **مفهوم الثورة** (بغداد: دار المعرفة، ١٩٨٠)، ص ١٣.

(١٠) سارتر، المصدر نفسه، ص ٥ ـ ٦.

(١١) المصدر نفسه، ص ٢٤.

نكافح إلى جانبه لنحرر ـ في الوقت نفسه ـ الجزائريين والفرنسيين من الاستبداد الاستعماري»[١٢]؛ لأن هذا الاستعمار ليس استبدادياً في الجزائر فقط بل في فرنسا أيضاً؛ فهو «يفرض على شبابنا ـ فيما يقول سارتر ـ أن يموتوا رغماً عنهم من أجل مبادئ نازية نحاربها منذُ عشر سنوات، وهو يحاول أن يدافع عن نفسه بخلق فاشية في صميم بلادنا: فرنسا»[١٣].

هذا، ويظهر استبداد الاستعمار الفرنسي أشدّ ما يظهر لسارتر في أشكال العنف والتعذيب الرهيبة التي يمارسها الاستعمار ضدّ المقاومين الجزائريين، وهي التي تسمى «جرائم الحرب». ويدفعنا سارتر إلى النظر إلى التعذيب في وضح النهار فيقربنا منه، وينتشله من الليل الذي يطمسه. وهكذا، فما يسمى «استجواباً» هو، في نظر سارتر، بكل بساطة جريمة دنيئة وحمقاء يرتكبها بشر ضدّ بشر آخرين: «فالمستجوِبون هم أحياناً بشر أعلون يمسكون أناساً تحت رحمتهم، وهم أحياناً أخرى رجال قساة أقوياء أوكُل إليهم أمر ترويض أوقح البهائم وأشدها وحشية، وأكسلها، البهيمة الإنسانية. ومن المفهوم أنهم لا ينظرون إليها عن كثب: فالمهم أن يشعروا السجين بأنَّه ليس من جنسهم: ولذلك يعرونه من ثيابه ويربطونه بشدة ويهزؤون منه. ويمر جنود بالقرب منه ذهاباً وإياباً يقذفونه بشتائم وتهديدات بلا مبالاة تريد أن تكون هائلة»[١٤].

إن التعذيب، أو اللجوء إلى العنف، والحالة هذه، لا يردّ كحل أخير عندما تعجز الحلول الأخرى عن أن تسهم في تصفية المقاومة أو الطابع النزاعي، بل هو لضمان الهيمنة ضدّ شعوب البلدان التابعة، وتجريدها من طاقتها الحقيقية، أو هو القوة التي تستعملها الحضارة العلمية ضدّ الحضارة البدائية. يقول سارتر: «أن يتقاتل الناس: تلك هي القاعدة.. أما في التعذيب، هذه المباراة الغريبة، فإنما يقيس الجلاد نفسه بالضحية من أجل صفة الإنسان، وكُلّ شيء يحدث كما لو أنهما لا ينتميان معاً إلى الجنس البشري. إن هدف الاستجواب لا يقتصر على إجبار الضحايا على الكلام وعلى الخيانة: بل على الضحية أن تشير إلى نفسها بالصراخ والخضوع على أنها بهيمة بشرية، في عيون الجميع وفي عينيها بالذات.. وإن من يستسلم للاستجواب لم يكن يراد فقط قسره على الكلام، وإنَّما هو قد دمغ إلى الأبد بصفة كونه: أقل من إنسان»[١٥]. وبعبارة أخرى، هناك حقيقتان متكاملتان وغير منفصلتين

(١٢) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(١٣) المصدر نفسه، ص ٣٣.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(١٥) المصدر نفسه، ص ٦٠ ـ ٦١.

في التعذيب: إن المستعمرين لا يعذبون الجزائريين غلاً لأنهم يرون أنهم ذوو حقّ إلهي، والسكان الأصليون هم دون البشر. وإن الحقد البشري الذي يتمثل فيه إنَّما يعبر عن العنصرية لأنه إنَّما يراد تهديم الإنسان نفسه بكل صفاته الإنسانية. هذا وليست نزعة الاستعلاء هي الدافع الوحيد، في نظر سارتر، الذي يشرح سبب ضراوة الجلادين، بل وكذلك الخوف والأخطار التي لا ترى قط، ولكنها حاضرة دائماً؛ فالتعذيب، كما يقول سارتر، غضب ولّده الخوف[١٦]، أو هو مؤسسة سرية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بسرية المقاومة أو المعارضة[١٧]. وبمزيد من الشرح، فإن نسبة قوى جبهة التحرير الوطنية (التي تقوم بالمقاومة)، والتي لا تتعدى الثقة وتأييد قسم كبير من الشعب، إلى قوى فرنسا التي تملك العدد والمال والأسلحة، تجبر جبهة التحرير على مهاجمة الاستعمار الفرنسي هجمات فجائية فتضرب وتختفي من دون أن تُرى. وأما من يُعتَقَل فيعتقل بالمصادفة. ومن هنا ينبع ضيق المستعمر وتنبع المفارقة التالية: إن الاستعمار يقارع خصماً سرياً ويقلق من صمت أخرس أنتجه هو بسبب النظام الذي اتبعه المستعمرون: «لقد سلبنا ـ كما يقول سارتر ـ المسلمين كُلّ شيء، ثُمّ حرّمنا عليهم كُلّ شيء حتّى استعمال لغتهم الخاصة. إنهم لا يملكون بعد شيئاً، وليسوا بعدُ أحداً. لقد صفينا حضارتهم فيما منعنا عنهم حضارتنا»[١٨].

هذه هي إذاً مواقف سارتر من الاستعمار الفرنسي للجزائر ومن ضروب الوحشية في معاملة الثوار. وهي مواقف تدلّ على جرأة كبيرة لديه، وعلى التزام من أجل الدفاع عن الكرامة الإنسانية وحرية الشعوب: «إننا ـ يقول سارتر ـ إذا كنا نود أن نضع حداً لهذه الأعمال الوحشية القذرة الكئيبة، وأن ننقذ فرنسا من العار وننقذ الجزائريين من الجحيم، فليس أمامنا إلا وسيلة واحدة: أن نفتح المفاوضات ونعقد السلام»[١٩]. ولكن يبقى الالتزام السارتري، سياسياً، على الرغم من ذلك مكتنفاً بالغموض، ومواقفه من قضايا عصره يجب أن يعاد بحثها ثانيةً، فالفرق الذي يرسمه سارتر بين الضحايا والجلاد، مثلاً، هو فرق غامض؛ إذ يذهب إلى أن التعذيب ليس عسكرياً وليس فرنسياً على وجه التخصيص، بل هو وباء يكتسح العصر كُلّه، وهو أمر شائع؛ فهو منتشر عند الهنغاريين والبولونيين والروس والألمان، وأسبابه في كُلّ مكان واحدة. ولذلك فإنه ليس بالأهمية بمكان، في نظر سارتر، على العصر![٢٠].

---

(١٦) المصدر نفسه، ص ٦٠.

(١٧) المصدر نفسه، ص ٥٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص ٦١.

(١٩) المصدر نفسه، ص ٦٦.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٥٦ ـ ٥٧.

وبعبارات أخرى، أصبح التعذيب، في نظر سارتر، «روتينياً»، وأصبح يفرض نفسه تلقائياً![٢١].

إن مما لا ريب فيه أن هذا الكلام لسارتر يوحي ببراءة الجلادين ويقدم لهم عذراً عن جرائمهم، بل ويجعل منهم ضحايا، ضحايا للتعذيب نفسه. يقول سارتر: «إن التعذيب ينتج الجلادين»[٢٢]. ولذلك فإن الجلادين في نظره: «لا يكادون يصدقون ما يرتكبونه من أعمال»[٢٣]. إن هذا الدفاع عن الجلادين يجب أن يبدد أوهامنا؛ فإن الالتزام السارتري ليس بوسعه إلا أن يحيل على تواطؤ أو على عجز، ذلك أن هذا الوسواس بالالتزام لا يتأسس على فعل، بل على خلاص ضمير أو خلاص جماعي. ويوفر للفرنسيين اليأس والخجل، لأنه يجعلهم يتبنون الجرائم وهم واعون. ولذلك فإنه ينبغي لنا، في الأخير، أن نحفظ لسارتر عرفاناً بالجميل لأنه نصر إنسانية الضحايا، ولكن ينبغي أن ننظر بوضوح إلى «خداع الالتزام» الحريص على إنصاف أشدّ الناس إجراماً.

---

(٢١) المصدر نفسه، ص ٦٣.

(٢٢) المصدر نفسه، ص ٥٤.

(٢٣) المصدر نفسه، ص ٦٥.